جان بول سارتر ومواقفه

الخيال والوجود

إن نظرة نلقيها على موضوعات الخيال تدلنا على أن هذه الموضوعات ليست قائمة فى عالم الواقع الذى تدركه الحواس ويحوى ما يحيط بنا من أجسام وحيوان وأناس مثلنا . بل إن عالم الخيال لا يشترك فى حياة «الأنا»، ولا يشترك تطوره ، إن صح التكلم عن تطور ، فى تغير « الأنا » . ولعل أقوى دليل على « عدم » موضوعات الخيال كونها لا تبدو قائمة فى زمن ما : فلا يمكننا أن نلحظ موضوع خيال فى تغير زمنى متصل ، بل غاية ما ندركه لحظات نتصور فيها الحوادث الخيالية ، وهذه اللحظات الخيالية ، حتى إن بدت متقاربة فهى مع ذلك متفرقة متميزة ، لا يربط بينها إلا اتجاه الفكر للحوادث المتخيلة ، وربطه المستمر بين أجزاء الحادث الخيالى ، وأقل تفكير فى حلم من أحلامنا يؤيد ذلك تمام التأييد . وقد يعترض بأننا نشعر عند مطالعتنا لقصة من القصص بأن حوادثها تقوم فى الزمن ، وأن منها ما يعطينا شعوراً بالزمن شديد القوة والحيوية . قد يتعذر الإجابة على الاعتراض إن لم نفكر فى أن القصصى لا يوحى إلينا بالزمن مباشرة بل يعمل على التأثير فينا ، وعلى إثارة اهتمامنا بحوادث القصة ، حتى ينتقل زمننا الشخصى إلى هذه الحوادث فيربط بينها ، ويعطيها وحدة أو شبه وحدة . وليس من شك فى أننا عندما نطالع فصول قصة رائعة مثل إحدى قصص دوستويفسكى أوسارتر نفسه (فى الغثيان مثلا) نحس بكثافة زمنية للحوادث . وهذا الإحساس ذاته نتيجة اجتماع شعورين ، شعور المؤلف بالزمن وشعور المطالع به . وتقوم فى هذا الزمن المزدوج حوادث لها قوة ، إن لم تحاك فى حقيقتها قوة الحوادث الواقعية ، فهى قد تفوقها من حيث تأثيرها فى العواطف . وما ذكرناه فى المقال السابق عن صلة الخيال بالعوامل العاطفية يؤيد ذلك .

والموضوعات الخيالية غير موجودة فى المكان أيضاً، أو أن مكانها غير المكان النسبى الذى تتعين فيه مواقع موضوعات الحس فى نسباتها أو تغيراتها المتبادلة. مكان الموضوعات الخيالية مطلق، أقصد أن تعييناته المكانية خاصة به، جزء منه، لا تنفصل عنه، لهذا الموضوع مكانٌ كما لموضوعات العالم رائحة أو لون أو طعم. ومكانه مطلق بمعنى أدق؛ لأنه لا يتعين بالنسبة لموضوعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه، يتجه نحوها أو تتجه نحوه. فعندما أتخيل صديقاً لى أقرر أنه قصير أو طويل أو سمين، على الإطلاق، لا أقارنه بموضوع آخر أكبر أو أصغر، أسمن أو أنحف، كما لو كان الطول أو القصر أو غيره من الصفات المكانية منسوبة له كما يُنسَبُ الأحمرُ للطربوش. وإذا كنت أتخيله سائراً فى الطريق، فهو لا يتقدم فى تصورى، ولا يتأخر بالنسبة لغيره من الناس أو الأجسام. وإن تخيلته فى غرفته فكأنه جزء منها، أو كأن غرفته جزء منه تلتصق به ولا تنفك عنه.

هذا معنى قول سارتر إن موضوعات الخيال خارجة عن الوجود، وأن لا زمن ولا مكان لها. ويرى سارتر بالإجمال أننا نلمس فى الموضوعات الخيالية شاهداً على أن ثمة عدما هو موضوع الشعور، وأن الحوادث الخيالية هى هذا العدم، أو مظهر واضح له، إن أمكن وجود مظهر لما لا وجود له. وليس الخيال إلا فعلا يسجل الاعتراف بهذا العدم.

هل تحوى النفس إذن فعلين متناقضين: الخيال والإدراك الحسى؟ وهل هناك موضوعات يكفى أن تتمثل للذهن حتى تختفى موضوعات الواقع؟ وكيف يصح هذا التناقض ولا يحدث عنه فى النفس خلل وفى العالم اضطراب شديد؟ ولكن ربما كان الخيال شيئاً غير أساسى فى النفس، وفعلا طارئاً عديم الأهمية إذا ووزن بالإدراك الحسى، وعرضاً فى جوهر النفس ليس له ما يؤثر فيها أو ما يخل بتوازنها. وربما كان الموضوع الخيالى أيضاً يعرض لنا دون أن يحدث بذلك فى العالم اضطراباً أو خللا، هو على هامش الوجود، تعرض له النفس وتقصده فى لحظات زائلة، عندما تكون النفس ذاتها على هامش وجودها الشخصى تلهو به وتلعب فى لحظات فراغها، كما تلهو الصبية وتلعب. أليس موضوع الخيال عدماً، أى لا شئ، أى ما ليس وراءه شىء — أى باطلا وعبثاً، يجب ألا نقف عنده، ولا نعيره أى التفات، وألا نخلق منه مشكلات؟

إذا كان الخيال على هامش النفس وكانت موضوعاته على هامش العالم، أعراضاً طارئة لا أهمية لها، فليس ثمة مايسوّغ قيام الخيال فى النفس، أقصد أننا لسنا فى حاجة إلى مبادئ فلسفية تفسره. وليس صادراً عن جوهرها من حيث هى مدركة، وليست موضوعات الخيال صادرة عن جوهر العالم من حيث إن العالم موجود، وإن النفس تدركه. ويصح إذن فى هذه الحالة أن نهمله كفلاسفة وألا نعتدّ به، كما لا نعتدّ من حيث نحن فلاسفة بأعراض النفس الغريبة وأمراضها. أما إذا كانت هناك شروط تسوّغ قيام الخيال وتفسر موضوعاته، إذا كان هناك ما يجعل الخيال وموضوعاته أشياء « ممكنة » على حد تعبير كنْت، فيصبح ثمة مجال للسؤال كما فعلنا: كيف يمكن قيام الخيال وموضوعاته، دون أن يؤثر فى النفس، ويحدث فيها وفى العالم خللا أو اضطراباً؟

نستدل من التفكير فيما بيناه من عوامل الخيال ومن طبيعة موضوعاته وكيفية مثولها للنفس، أن ثمة شروطاً فلسفية تفسره وتجعله «ممكناً» بين أفعال الشعور، وخاصة ما ذكرناه من أن موضوع الخيال غير قائم فى الوجود. وهذا معناه على الأقل شيئان: (أولا) أن الخيال يحمل عامل إنكار، بل إنه فى ذاته فعل سالب إن لم يكن حكماً سالباً بالمعنى الدقيق. فنحن عندما نتخيل ننفى عن موضوع خيالنا خصائص الوجود كما تمثل لنا فى الإدراك الحسى. الخيال إنكار إذن أو تصور مقترن بإنكار. (ثانياً) الخيال يحررنا من شرائط الوجود العالمىّ، فهو إذن شرط لحرية النفس؛ إذ أننا عندما نفكر فى الخيال، فنحن نقطع ارتباطنا بالعالم الموجود، ومن ثمة لا نخضع لقوانينه. وفى الخيال نشعر بأن موضوعاته، حتى ما كان من بينها قابلا لإدراك حسى فعلى، تصدر عن النفس لا عن الخارج، ثم تختفى فى النفس بإرادتها.

نصل إذن إلى تفسير الخيال تفسيراً فلسفيًّا، وإلى وضع شروط « إمكانه » عندما نلاحظ أنه يقوم من ناحية على قدرة فى النفس على النفى، ومن ناحية أخرى على حرية النفس، وبتعبير آخر على قدرة النفس على إنكار العالم بجملته، وعلى التحرر من العالم بجملته. يتطلب الخيال إذن استطاعة النفس الابتعاد عن العالم، واتخاذ مركز تشعر النفس فيه بأنها فى معزل عن العالم، مركز يمكنها منه أن تنكر العالم بالنسبة إليها، وأن تنكر ذاتها بالنسبة إلى العالم. العالم فى هذا المركز

معدوم بالإضافة إليها ، وهى فى هذا المركز معدومة بالإضافة إلى العالم . وهذا معنى ما يقرره سارتر من أن الخيال فعل معدم ، للعالم والعدم يتطلب موضوعاً .

يبدو إذن أن التناقض بين الخيال وبين الإدراك الحسى أمر لا مفر من الاعتراف به . ولكن علينا أن نسأل مرة أخرى : كيف يصح الإقرار بهذا التناقض دون أن يحدث عنه فى النفس اضطراب وفقد توازن ؟ وكيف يصح قيام تناقض صريح بين فعلين ، مثل الإدراك الحسى والخيال ، يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما يفترض قيام الآخر ، وتحاكى موضوعاته موضوعات الآخر ؟ أظن أن الأمر يحتاج إلى مراجعة آرائنا عن الإدراك الحسى وعن الشروط التى يقوم عليها . الإدراك الحسى تقرير للواقع ، تقرير لموضوع فى العالم من حيث إن هذا الموضوع حاضر أمام الذهن حضوراً فعلياً . ولكن كى يحتفظ هذا التقرير بقيمته ، وكى يقوم إدراك حسى بالمعنى العام ، يجب أن نفترض ، بين فعل الإدراك وبين الموضوع المدرك ، تميزاً دقيقاً . وواضح أننا فى إدراكنا الحسى لشىء واقعى لسنا مختلطين بالشىء ، وأننا نميز ضمناً ، عن الشىء ذاته ، المدركة ، لا فى طبيعتها فحسب ، بل فى شرط وجودها أيضاً . ومعنى هذا أن الإدراك الحسى يتضمن إمكان قيام النفس بمعزل عن العالم الذى تدركه أو عن موضوع منه . ولكن ماهذا الشرط الضمنى للإدراك إلا ما ذكرناه بالذات عن الخيال ؟ يفترض كل من الخيال والإدراك عالماً واقعيا ، ويتخذ الإنسان لذاته فى كل منهما موقفاً إزاء العالم وموضوعاته ، ويُميزُ ذاته فى كل منهما عن هذا العالم .

لا يذهب إذن الاختلاف بينهما إلى حد يمنع اتفاقهما ومشابهة موضوعات أحدهما لموضوعات الآخر ، ولا إلى حد يحدث اضطراباً فى النفس وفقداً لتوازنها . وإذا كان الخيال يفترض العدم فى موضوعاته ، عدم العالم بالنسبة للنفس التى تتخيل ، فإلى حد ما يفترض الإدراك هذا أيضاً ، ولا يمكن كما ذكرنا ، إدراك العالم أو موضوع فيه إلا إذا كنا قادرين على اتخاذ حركة تراجع وانسحاب بالنسبة له ، وما معنى هذا التراجع إلا أننا فى الإدراك لانقرر على الإطلاق أننا والعالم شىء واحد ، بل إننا نعتبر العالم عدماً بالنسبة للنفس . وهذا بالضبط ما يقوله هيدجر إن : « العدم قائم فى جوهر الوجود » .

ولكن واضح أن النفس لا تقرر هذا العدم تقريراً صريحاً فى الإدراك الحسى كما تفعل فى الخيال . وواضح أن النفس عند اتحادها بالعالم فى الإدراك الحسى ،

عند اتخاذها ، على قول سارتر ، الموقف الواقعى ، تقترب من العالم أشد الاقتراب . فتراجعها عن العالم فى الإدراك بالقوة لا بالفعل ، وتجاوزها له ، بالقوة لا بالفعل . وواضح أخيراً أن الخيال انقلاب النفس من حالة القوة إلى حالة الفعل ، فتتخلى النفس عن مقتضيات العالم ، عندما تطغى هذه على النفس وتفقدها حريتها .

إذا كان الخيال يعنى مجهود النفس للتخلص من مقتضيات الوجود ، ولإعطاء الحرية أتم معانيها ، فالفن دون شك هو أقصى مراتب الخيال ، وهو أكثر أفعاله استقراراً وانتظاماً . للفن على الأقل ما للخيال من خصائص ، ولآيات الفن ما لموضوعات الخيال من المميزات . فالفنان لا يعمل كما يدعى البعض على تحقيق فكرة مثالية أو على إنزالها إلى ميدان الواقع ، وصبغها بألوانه ، بل يجهد الفنان ، ما استطاع ، أن يخرج ذاته ومصنوعاته من الواقع . انظر إلى هذه اللوحة لماتيس المصور الفرنسى المعاصر ، تجد اللون الأحمر فيها يكتسب قيمته الفنية بقربه من صوف سجادة ، ثم لاحظ كيف يتخذ اللون الأخضر الذى يغطى الحائط فيها لمعاناً جافيا جامداً ، وذلك بمجاورته للأحمر المذكور . والحقيقة أن ألوان اللوحة تكتسب معناها ومغزاها من موقعها فى كلٍّ غير موجود أمامنا ، فى كلٍ قائم فى العدم . واللوحة التى أمامنا وألوانها وتركيب هذه الألوان فيما بينها تمضى بذهننا إلى كلٍّ فى العدم يوحى لنا المصور به ، ويريد منا أن نشاهده فى اللوحة .

أنت فى دار من دور الموسيقا تتوقع سماع السيمفونيا السابعة لبيتهوفن : قبل ما تبدأ الجوقة ، فأنت مثل غيرك من الناس تشعر بمرور الوقت شعوراً واقعيا يتفاوت حسب ملابسات خارجية أو حسب حالة نفسك ، ولكن ماتبدأ الجوقة بالعزف ، حتى تأخذك النغمة من الواقع ، وتنتقل بك إلى عالم آخر هو عالم السيمفونيا السابعه ذاتها وهذه السيمفونيا التى تنصت لها فى روعة وخشوع لا تبدأ بالمعنى الدقيق فى هذا الوقت أو ذاك ، ولا تمر أجزاؤها بلحظات الزمن الذى يقدره الناس بشعورهم أو بساعاتهم . وللسيمفونيا السابعة نهاية ؛ ولكن هذه النهاية لا تسبق لحظة أخرى هى التى ستجد نفسك فيها عندما تترك مع المستمعين دار الموسيقا ، بل لا تقوم هذه النهاية إلا بالنسبة لابتداء السيمفونيا ولأجزائها المختلفة ، ولا علاقة زمنية لها بزمنك أو زمن الآخرين .

تأمل فيما تشعر به عند خروجك من المسرح من الاشمئزاز . كنت فى عالم آخر تملّكَ نفسك حتى عجزت ، عند زواله ، عن اتخاذ ما يناسب العالم الواقعى من المواقف . هذه وأمثلة أخرى غيرها تؤيد فكرة سارتر فى أن الفن كجميع مظاهر الخيال يفترض انعدام العالم .

أخيراً يؤدى بنا التفكير فى الصلة الوثيقة بين الفن والجمال إلى القول بأن الجمال غير متحقق فى الوجود ، وأن العالم فى ذاته غير جميل ، وأننا لا نشعر بالجمال إلا بقدر ما نتراجع عن العالم ، وبقدر ما يدخل العالم بالنسبة لنا فى العدم . ويقول سارتر إننا لا نستطيع القول عن امرأة إنها جميلة إذا كنا نراها أو نلمسها ، بل جمال المرأة يصبح حقيقة لأيدٍ لا تلمس ، ولأعين لا تبصر .

هذا بإيجاز ما يراه سارتر فى الخيال وفى صلته بالإدراك والوجود ، وهذا ما يخلص له من النتائج فى الفن والجمال . ولسنا نرمى إلى التعرض لهذه النتائج بالفحص والتمحيص ، ولا إلى تخطئة سارتر فيما يدعيه من انفصال قِيَمَ الفن والجمال عن الحياة والواقع ، ولا إلى مناقشة موقفه من الوجود والعدم بالرغم مما لهذا الموقف من الخطر والأهمية . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى المسألة الرئيسية التى يعالجها فى كتاب « الخيالى » . ويبدو لنا أنه إذا لمسنا ضعف موقفه من الخيال وضعف منهجه فى معالجة الخيال ، لمحنا ولو عن بعد ، موقفه إزاء المشكلات الأخرى المتعلقة بالفن وبالفلسفة البحتة .

نلاحظ أولاً أن سارتر لم يميز بين نوعين من الخيال : واحد يسترجع ما أعطاه الحس مرة أو مرات ، ويقرب من الذاكرة إلا فى أنه غير مصحوب بتعرف ولا بتعيين . وآخر يصنع موضوعاته صنعاً ، ويؤلفها تأليفاً . لا يميز بين نوعين من الصور ، صور راجعة وصور جديدة . وإن كان كثير مما يذكره سارتر ينطبق على الخيال المخترع ، فلا شك فى أن أغلبه لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الخيال الآخر ، وهو صورة أو تصور طبق الأصل لما أعطاه لنا الإدراك الحسى . ولا شك أن سارتر بإهماله هذا التمييز يقنع القارئ الساذج بجدّة ما وصل إليه من النتائج ، وباتساع الميدان الذى عملت بحوثه على اكتشافه .

هناك ثانياً نواح فى وصف سارتر لا نرى بالضبط صلتها بفعل الخيال . فما يذكره خاصة عن الشبه القائم بين مظاهر الخيال ، وضروب السحر والشعوذة أو تصورات البدائيين شىء قد كان يجدر به عدم الاسترسال فيه . وأغلب الظن

عندنا أنه َطرَقَ هذه الأبواب . لأنها من ناحية تسمح له بإنشاء أدبى يقبل عليه الجمهور ويحبه ، ولأنها متصلة من ناحيـة أخرى ببعض نظريات رائجة فى هذه الأيام ، يفترض صحتها دون أن يعرض لها بالتفصيل ، ودون أن يناقش قيمتها على الإطـلاق .

يقول سارتر إن الخيال إنكار هو مظهر لحرية النفس ، وإن موضوعه العدم . ويدعى أن هذا التفسير قد أعانه فى حل المشكلة القائمة بصدد صلة الخيال بالإدراك الحسى . ولـكن لا يسعنا إلا أن نلاحظ هنا أن ما اعتبره سارتر شرطاً لازماً لفعل الخيال ، عاد فصرح بأنه لازم أيضاً للإدراك ، بل قبل ضمناً أنه شرط لازم لجميع أفعال الشعور أيا كانت : ففى كل فعل من أفعالهـا تنكر النفس أنها والعالم شىء واحد ، وفى كل فعل تقرر ضمناً أو صراحة حريتها . أى إن الشرط المذكور لا ينطبق على فعل الخيال فحسب ، بل هو عام مشترك بين جميع أفعال النفس . لا يميز سارتر إذن الخيـال عن غيره ، ولا يفرقه فى ذاته ، ولا يعيـِّنه بالمعنى الدقيق ؛ فهو لا يفسره من حيث هو خيال .

وجمـلة القول : َعمِـل سارتر على إعطائنا وصفاً َسـيـكـُولوِجيًّا دقيقاً للخيال ، ووفق فى ذلك أتم التوفيق . ونجح سارتر فى معالجة المسائل المتصلة بالخيال بطريقة جـذّابة مشوقة ، وعبّر عن آرائه بأسلوب جميل رائع ، ونظم أفكاره تنظيماً لبقاً دقيقاً . ثم إنه حاول إيجاد تفسير فلسفى للخيال ولموضوعاته ، فلم يوفق فى ذلك ، ولم يحصل بالفعل على شىء دقيق . وربما أمكن ردُّ عـدم توفيقه هذا إلى ما ينقص سارتر من مميـزات الفيلسوف الحقيقى ، أى الدقة فى التحليل والتمييز ، والقدرة على رؤية الأشياء كما هى فى ذاتها ، وعلى الفحص عن المسائل فى أعماقها ، والجهد المتصل لبلوغ الحقيقة المجردة مهما كان السبيل إليها وعراً عسيراً .

نجيب بلدى